افتتاح المؤتمر التربوي الأول

مراد جرداق(*)

حضرة الدكتورة ليلى فياض ممثلة معالي وزير التربية

الزميلات والزملاء،

يطيب لي أن أرحب بكم باسمي واسم الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية وكذلك باسم اللجنة المنظمة لهذا المؤتمر. وأخص بالتحية الزميلات والزملاء من الدول العربية الشقيقة متمنياً لكم جميعاً المشاركة الطيبة والفائدة الكبيرة من هذا المؤتمر.

يتميّز مؤتمر «الكتاب المدرسي: دوره، مضمونه، جودته» الذي نحن بصدد افتتاحه اليوم ببعض الصفات، والتي أود أن أشارككم فيها شكلاً ومضموناً. **من حيث الشكل**:

أولاً: إن هذا المؤتمر هو من المؤتمرات القليلة في الحقل التربوي تنظمه مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني وعلى المستوى العربي ما أتاح لنا التركيز على النواحي العلمية الصرف دون أن تحدنا المسائل الرسمية إلا ما عدا تأشيرات الدخول إلى لبنان لزملائنا من فلسطين والعراق والذين لم يتمكنوا من الحصول على التأشيرات المطلوبة لسبب أو لآخر. وهذا بدوره استدعى بعض التغييرات في البرنامج.

ثانياً: إن هذا المؤتمر نُظّم على أساس مفهوم الدعوة المفتوحة لجميع الباحثين لتقديم اقتراحات أوراق ضمن المحاور التي حددتها وثيقة المؤتمر. وقد خضعت كل

(*) الجامعة الأميركية في بيروت.

اقتراحات الأوراق إلى عملية تحكيم من قبل لجان مختصة أوصت إما بقبول الاقتراح أو القبول مع التعديلات أو عدم القبول. ومن اصل ٣٢ اقتراحاً تبقّى ١٦ ورقة وهي الموجودة في برنامج المؤتمر. وكان هدفنا من ذلك دعم التقاليد العلمية في اختيار الأوراق للمؤتمرات العلمية بإخضاعها للتحكيم من قبل الزملاء والأقران.

ثالثاً: أردنا أن يكون هذا المؤتمر فرصةً لتعزيز شعور المؤسسات والأفراد بأهمية المشاركة في المؤتمرات العلمية. وكما هو معمول به في المؤتمرات العلمية في البلاد المتقدمة، وضعنا رسماً رمزياً للتسجيل هو في أساسه طريقة تعبّر من خلالها المؤسسات عن القيمة التي تعطيها للمشاركة من خلال دعم العاملين فيها للتسجيل والمشاركة في هذا المؤتمر. ونأمل تعزيز مثل هذا التقليد لكي تنخرط المؤسسات التربوية في المشاركة في المؤتمرات العلمية.

أما **من حيث المضمون** فأود أن أشارككم في مسوّغات اختيار الهيئة واللجنة المنظمة لموضوع الكتاب المدرسي.

أولاً: ان الكتاب المدرسي يستحق الدراسة والتطوير لأنه سيبقى في المستقبل المنظور الوسيلة التعليمية الأهم للتعليم للعدد الأكبر من التلاميذ سواء في العالم أو في البلاد العربية رغم الوعود والآمال التي تصورها لنا تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي تزعم أن الكتاب المدرسي بالشكل الذي نعرفه سيختفي ليحل محله نظام جديد من تخزين للمعلومات واسترجاعها والتفاعل معها.

ولكي نفهم بشكل أفضل موقع الكتاب المدرسي في الزمن الحالي ينبغي العودة إلى المسار التاريخي الذي أوجد وطوّر الكتاب المدرسي. يقول بعض الدارسين أن مسار التعليم مرّ تاريخياً بأربع نقلات نوعية كبيرة هي:

أولاً: انتقال مهمة التعليم من العائلة إلى المدرسة كمؤسسة اجتماعية

ثانياً: استعمال الكتابة في التعليم وانتقاله من التعليم الشفوي إلى الكتابي

ثالثاً: اختراع الطباعة ودخول الكتاب المطبوع وانتشاره كوسيلة التدريس الأساسية.

رابعاً: النقلة النوعية الموعودة وهي دخول تكنولوجيا المعلومات والاتصالات حقل التعليم.

إن النقلة النوعية الرابعة المتمثلة بدخول تكنولوجيا المعلومات والاتصالات

حقل التعليم ما زالت في بداياتها وهي مقصورة على قلة قليلة مقتدرة على اقتنائها واستعمالها إذ أن كما يقول المدير العام لليونسكو في رسالة نشرت أخيراً «فإن ثلاثة أرباع العالم حالياً لا يملكون أي وسيلة من وسائل الاتصال الحديثة سلكية أو لاسلكية». وهذا الواقع يجعل من الكتاب المدرسي المطبوع الوسيلة الرئيسية للتعليم ليس على مستوى العالم ككل بل على مستوى البلد الواحد وحتى على مستوى المناطق التربوية والمدارس ضمن البلد الواحد. وهذا الواقع سيستمر طالما استمرت الهوة الرقمية بين الذين يملكون والذين لا يملكون. وهذا ما حدانا لتخصيص هذا المؤتمر للكتاب المدرسي الذي نعتقد أنه سيستمر الوسيلة التعليمية الأهم للعدد الأكبر من التلاميذ.

ثانياً: يمثل الكتاب المدرسي مساحة مشتركة قد تكون فريدة في حقل التعليم للتفاعل بين المجموعات والأدوات والعلوم. ففي الكتاب المدرسي يلتقي المؤلفون والمعلمون والتلاميذ وإدارات المدارس والأهل. وفيه أيضاً تلتقي العلوم الاجتماعية كانت أم الإنسانية أم الصحيحة. والكتاب المدرسي متعدد الوظائف بحسب الجهة التي تستعمله. فهو أداة ثقافية حاملة للقيم الاجتماعية السائدة وهو أداة تربوية للمعلمين والمتعلمين وهو أداة تحكم من قبل الدول أو السلطات لتنفيذ السياسات المعتمدة أو الجودة أو تكافؤ الفرص. وفي الكتاب المدرسي يلتقي الفن والحرف الطباعية والصناعة والإنتاج والتجارة والتوزيع وهو فوق ذلك مسبوك باللغة بما تحمل من دلالات وقيم. ولأن الكتاب المدرسي يبدو كأنه مجتمع مصغّر للتعليم ارتأينا أن يكون موضوع المؤتمر التربوي الأول للهيئة اللبنانية للعلوم التربوية. وكما يتبين من برنامجه فإن المؤتمر سيناقش كثيراً من أوجه هذا التفاعل.

أود أن أوجه الشكر الخاص إلى من ساهموا في الإعداد لهذا المؤتمر وفي تنفيذه ودعمه.

أوجه الشكر **أولاً** إلى لجنة المؤتمر التي كان لي شرف رئاستها:

- الدكتورة كرمة الحسن
- الدكتور عدنان الأمين
- الدكتور صوما بو جودة
- الدكتورة إيمان أسطة

- الدكتورة عائشة حرب
- الدكتور نخلة وهبة
- الدكتور فوزي أيوب
- الدكتور غازي غيث

وأوجه الشكر **ثانياً** إلى المؤسسات التي دعمت هذا المؤتمر مادياً وهي:

- المكتب الإقليمي لليونسكو للدول العربية الذي وفر تمويلاً لنشاطات مختارة منها طبع وقائع المؤتمر وأوراقه في كتاب.

- مكتبة لبنان التي موّلت وأنتجت كراس المؤتمر الموضوع في الملف بين أيديكم.

- شركة التأمين العربية التي موّلت إعداد الملفات الخاصة بالمؤتمر وأشكر أيضاً معالي وزير الثقافة والسيد انطوان حرب المسؤول الإداري عن قصر الأونيسكو لاستضافتنا فيه.

وأخيراً، أود أن أوجه شكراً كبيراً للمنسقة الإدارية لهذا المؤتمر السيدة عايدة عبد الصمد وفريقها والتي يمكنكم شكرها لكل الأعمال التنظيمية لهذا المؤتمر.

مقدمة

فوزي أيوب(*)

ما يزال الكتاب المدرسي مصدر المعرفة الأول في العالم العربي رغم التوجه العالمي الكاسح نحو الوسائل الحديثة (انترنت وغيره) للحصول على المعلومات والمعارف المتنوعة. فهذه الوسائل ما تزال بعيدة عن متناول الجماهير العريضة، وهي لا تتيسّر حتى الآن إلا لنخبة اجتماعية-ثقافية محدودة في المجتمع العربي الذي تسوده قناعة راسخة بمكانة الكتاب المدرسي، إن لم نقل بقدسيته المستمدة بشكل أو بآخر من القرآن الكريم.

هذه الأهمية المميّزة للكتاب المدرسي تجعل مضمونه أكثر تأثيراً في المسيرة التعليمية للتلميذ العربي سواء في مجال المعلومات النظرية، أو في مجال المهارات العملية أو في مجال القيم الاجتماعية والإيديولوجيا. إن القارىء العربي يألف الكتاب أكثر مما يألف الكمبيوتر. وقد بيّنت الدراسات أيضاً أن إجابات التلاميذ عن الأسئلة المطروحة في الامتحانات مأخوذة في غالبيتها من الكتب المدرسية.

وبالنظر إلى المكانة الخاصة بالكتاب المدرسي، فقد كان من الطبيعي أن يكون مادة الدراسة والتقويم في الدول العربية وبقية العالم. ولكن أكثر الدراسات العلمية حول الكتاب المدرسي كانت إما منفردة، أو أنها تناولت مادة تعليمية واحدة في الغالب أو مجموعة مواد متقاربة (لغة، اجتماعيات، علوم... الخ). وفي هذا السياق شكلت وقائع مؤتمر بيروت للكتاب المدرسي ودوره خطوة كبيرة وغير مسبوقة في العالم العربي. فقد أسهمت تلك الوقائع في تطوير المضمون التربوي

(*) دكتوراه في علوم التربية، من جامعة السوربون. أستاذ مساعد في كلية التربية في الجامعة اللبنانية، وعضو في الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية.

التنظيمي والمضمون العلمي، والمضمون الإيديولوجي القيمي وصولاً إلى قضايا متفرقة للكتاب المدرسي بوجه عام.

من الناحية التربوية التنظيمية طرح المؤتمرون مسائل مرتبطة بصناعة الكتاب المدرسي وإنتاجه وطباعته وإخراجه، إضافة إلى التنظيم الداخلي لموضوعاته. كما طرحوا مسائل تتعلق بالتشويق والجذب وغيرهما من الطرائق البيداغوجية التي تشد التلميذ إلى مضمون الكتاب، إضافة إلى طرحهم مسألة نوعية العلاقة بين المنهج الدراسي بأهدافه العامة والخاصة، وبين مضمون الكتاب المدرسي.

في هذا الإطار تدخل محاضرة جوناثان كراينر حول دور ونشاطات معهد جورج إيكرت في تطوير الكتاب المدرسي، وخاصة كتب الاجتماعيات، في ألمانيا والعالم. وتدخل في الإطار نفسه دراسة صافي صافي حول النشاطات التربوية الواردة في مقررات العلوم للمرحلة الأساسية في فلسطين، ودراسة تيسير أندراوس التي استهدفت تقييم واقع الوسائل التعليمية المعروضة في كتب الاجتماعيات للمرحلة نفسها في الأردن.

تربوياً أيضاً يبحث جورج نحاس تأثير المقاربة المعرفية النمائية على محتوى الكتاب المدرسي. ويقدم فوزي جمال مداخلة عن مدى مسايرة الكتاب المدرسي الكلاسيكي (الورقي) للتطورات الالكترونية التي سمحت بظهور الكتاب الالكتروني أو الرقمي. كذلك تبحث سميلة الصباغ في دراسة لها عن مدى تمثّل كتب الرياضيات في التعليم الأساسي الأردني للمعايير العالمية في مناهج الرياضيات بعد أن ازدادت الشكوى من تدني مستوى التلميذ الأردني في هذه المادة.

وتتحدث عائشة حرب في بحثها عن كيفية تعاطي مناهج التعليم اللبنانية الجديدة مع موضوع التنشئة المدنية والتربية الوطنية في لبنان. كما يتعرض عمر مسلم في بحثه التربوي لوظيفة النحو العربي في التعليم من جهة ولتبويب المسائل اللغوية في كتب النحو المدرسية من جهة أخرى. ومن ناحية تربوية غالبة، تعرضت ليلى السبعان لأهمية الكتاب المدرسي وللمعايير التي تضمن جودة هذا الكتاب تربوياً، بحيث يحظى كل معيار بما يستحقه من عناية. أخيراً، تظهر غلبة الجانب التربوي اللغوي على بحث حليمة عمايرة التي تعقد مقارنة تتعلق بطريقة عرض القاعدة اللغوية في كتب القواعد الأردنية ثم العمانيّة وبحجم القواعد المطروحة في البلدين.

وبما أن الكتاب المدرسي مضمون علمي أيضاً، فإن الناحية العلمية تفرض

نفسها في وقائع مؤتمر الكتاب المدرسي في بيروت (٢٠٠٦) من خلال البحث الموسّع الذي قدمته أندريه تحومي عن الأبعاد الابستمية (المعرفية) للمضمون العلمي لكتب علوم الحياة في لبنان حتى لا يحصل تشويه للمفاهيم العلمية في هذه الكتب ما يؤثر سلباً على التكوين العلمي للتلاميذ. وتتوزع عملية تقويم المضمون العلمي للكتاب المدرسي، في الواقع، على عدد من الأبحاث والمداخلات التي يغلب الطابع التربوي والإيديولوجي معاً على تصنيفها.

يبرز التوجه الإيديولوجي، وما ينطوي عليه من القيم، بصورة جلية في خمسة أبحاث عرضها أصحابها في مؤتمر الكتاب المدرسي بدءاً بالبحث الذي قدمناه عن التوجهات الإيديولوجية لكتب التاريخ في المملكة العربية السعودية. يلي ذلك المحاضرة التي قدمتها باتريشيا بيدرسون عن القيم التي تبثها كتب الاجتماعيات الأمريكية بين تلاميذ المدارس في الولايات المتحدة الأميركية، والبحث الذي قدمته فاتن محمد يوسف عن تطور عملية التوجيه الإيديولوجي في كتب التاريخ المصرية في عهود الرؤساء جمال عبد الناصر وأنور السادات وحسني مبارك. ففي هذه العهود المتعاقبة تمت إعادة كتابة التاريخ بما يتوافق مع التوجهات السياسية للحاكم.

ومن جانبها قدمت مارلين نصر محاضرة تفصيلية عن موضوع التنشئة السياسية في التعليم الأردني، وعن المعاني الخاصة بالديموقراطية وحقوق الإنسان في هذا التعليم. كذلك يبحث تيسير القيسي في طبيعة القيم الإنسانية الموجودة في كتب اللغة العربية في التعليم الابتدائي في الأردن، ويخلص إلى أن مفاهيم التعاون وطلب العلم والأمانة والجمال هي أكثر القيم تواتراً في تلك الكتب.

وفي كل الأبحاث التي تطرقت إلى الأبعاد الأيديولوجية في الكتاب المدرسي، تساءل الباحثون عما إذا كانت هذه الكتب أداة للتثقيف والتطوير وتكوين الفكر الناقد، أم أنها أداة للتنميط والقولبة الإيديولوجية والجمود الفكري.

وبجانب النواحي التربوية والعلمية والإيديولوجية التي تحدثنا عنها، تضمن مؤتمر الكتاب المدرسي عدداً من المداخلات المتفرقة التي تدخل تحت عنوان «القضايا العامة» للكتاب المدرسي. في هذا الإطار تندرج مداخلة أحمد أوزي التي تطرح مسألة ترجمة الكتاب المدرسي والتي تتجاوز المستوى اللغوي لتطال المستوى الثقافي-الحضاري للشعبين المعنيين بعملية الترجمة.

وامتداداً لإشكالية الترجمة التربوية، يعرض رضا إسماعيل تجربة جيوبروجكتس اللبنانية في تعريب وتكييف مضمون مادتي العلوم والرياضيات كما طورته شركة هاركوت الأميركية بحيث يصبح هذا المضمون ملائماً للتلميذ العربي. وأخيراً، يطرح عصمت القوّاص رؤية أساتذة التعليم الثانوي في لبنان للمناهج والكتب المدرسية الجديدة التي جاءت ثمرة لخطة النهوض، مشيراً إلى الهنات ونقاط الضعف التي رافقت عملية إنتاج وتأليف الكتاب المدرسي اللبناني الجديد.

ولقد كان حرياً بنا ترتيب أجزاء الكتاب بحسب نوعية الأبحاث المشار إليها وطبيعته مضامينها وما يغلب عليها من طابع تربوي أو علمي أو إيديولوجي، ولكن احتراماً منا للطابع الذي اتخذته مجريات مؤتمر الكتاب المدرسي في بيروت، فقد اعتمدنا مبدئياً التبويب الوارد في برنامج المؤتمر بعد إدخال شيء من التعديل فيه بحيث جعلنا وقائعه في ثلاث فئات تشمل المحاضرات أولاً، والأبحاث ثانياً، والندوات وما تضمنته من مداخلات ثالثاً.

والهيئة اللبنانية للعلوم التربوية التي رعت المؤتمر التربوي العربي الأول حول الكتاب المدرسي، إذ يسرّها أن تضيف إلى قائمة منشوراتها العديدة كتاباً جديداً، فإنها تأمل أن يحمل في طياته فائدة مميّزة لأهل التربية والفكر في لبنان بخاصة، وفي العالم العربي بوجه عام.